كلية : الآداب

القسم او الفرع : / قسم الاجتماع

المرحلة: المرحلة الثانية

أستاذ المادة : أ. م . د . وفاء كاظم علي

اسم المادة باللغة العربية : المجتمع العراقي

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Iraqi Society

اسم المحاضرة العاشرة باللغة العربية: تكملة محاضرة الشخصية العراقية في رأي الطاهر

اسم المحاضرة العاشرة باللغة الإنكليزية : Supplementation of the lecture of the Iraqi character in the opinion of Al-Taher

محتوى المحاضرة العاشرة

تكملة محاضرة الشخصية العراقية في رأي الطاهر

في عام ١٩٧١ تراجع الدكتور الطاهر عن تحديد أسباب القلق في الشخصية العراقية لا لنضج ملاحظاته أو اكتشافه لأسباب جديدة او ظهرت له بأن دراسته السابقة تحتاج الى اعادة نظر بل لرد فعل سلبي تجاه دراسة الدكتور الوردي في موضوع الشخصية العراقية ، وسنعرض جميعا التناقضات المستمرة في الرؤية والتحليل والاندفاع الشخصي حيث قال و الحقيقة أن قلق الشخصية العراقية ناتج عن التناقضات المستمرة القائمة بين الادوار المتعددة التي تقوم بها في البيت والمزرعة والمصنع والمدرسة والنادي والنقابة والمقهى والوظيفة ومجالس الانس والمسامرة ، وغيرها بحيث يصعب احيانا التوفيق بين كل تلك الأدوار لأن كل دور يرمز الى مستوى معين في اعمال الشخصية العراقية ولكن هذا القلق ليس مرضا وانما ينبوع . لتحفيز العراقي على الحركة والديناميكية والإبداع . انها شخصية قلقة محللة تحلل الاشياء والموضوعات وتعيد تركيبها وبناءها من جديد حتى لو كانت منحصرة بين البداوة والحضارة ومتمسكة بهما لما استطاعت ان تبدع في اللغة والادب والنحو والفقه والتكلام والفلسفة والقانون . ان الصراعات والتناقضات التي تزخر بها الشخصية العراقية متعددة وكثيرة منها التناقضات بين الطبقات الاجتماعية وبين الاستعمار والقومية بين الانظمة الاقطاعية والاشتراكية ، بين المدينة والريف ، بين المنتجين والمستهلكين بين الجيل القديم والجيل الصاعد ، بين العناصر والديانات والعشائر وبين اللون الابيض والشعوب الملونة بين الطوائف وبين الاجناس بين الرجل والمرأة . عل ينكن ان تختزل كل هذه التناقضات الى مجرد تناقض واحد بين (البداوة والحضارة) انه جزء من المنهج المثالي القديم انه العصور الوسطى ، انه منهج انهزامي يلفت عنقه الى الماضي البعيد علـه يجد فيه ملجأ ومهربا في دراسة الواقع . لنفترض ان تحليل الاستاذ الطاهر هذا اقرب الى الصواب ولا علاقة له برد الفعل السلبية تجاه الوردي ، فهل يعقل أن تتحمل وتستوعب الشخصية العراقية هذا الكم الكبير من الصراعات ؟ واذا كان واقعيا فان اسمرار وجوده ضرب من ضروب الاستحالة لنأخذ مثالا بسيطا منطلقا من الصراعات التي أوردها الدكتور الطاهر منها :

متى كان الصراع قائما بين الرجل العراقي والمرأة العراقية عبر التاريخ ولحد الآن ؟ ان اسرتنا ابونة بنسبها وسلطتها وحتى في الوقت الحاضر التي . تحررت المرأة في العديد من القيود الاجتماعية وحصلت على العديد والمكاسب المعنوية والقانونية لم تتصارع مع الرجل بل ساعدته في اتجاه .. العديد من النشاطات الاسرية وسواها . مشال آخر : متى حصل في النوع الشخصية العراقية بين اللون الابيض والشعوب الملونة ؟ لم يحصل هذا من الصراعات في تاريخ المجتمع العراقي ، ومتى أصبح الصراع بين العناصر والديانات في المجتمع العراقي ظاهرة ؟ ان هذا التصوير بعيد كل البعد عن واقع الشخصية العراقية وأنه مجرد كلام غير واقعي ومنطقي . ولا يمكن الركون عليه في الدراسات الاجتماعية الموضوعية **لقد ذكر الدكتور الطاهر بعض الاعراض العامة التي نجمت عن الفتن والنزاع الداخلي في الشخصية العراقية** منها ما يأتي :

١ -الثورات والانقلابات والحروب الداخلية والمنازعات القبلية .
٢ -التظاهرات والاعتصامات والمسيرات .
٣ -اعلان الاحكام العرفية وحل البرلمانات وتعطيل الصحف .
٤ -الاعتقالات والنفي والطرد والفصل والعزل .
٥ -اغلاق المدارس والمعاهد والجامعات .
٦ -سقوط الوزارات وعزل الولاة واسقاط الجنسية .
٧ -التخلف .

الغريب في هذا الاستخلاص أنه ينفي أسباب الوعي السياسي والاحزاب السياسية العراقية وايمان العراقيين بتربة الوطن وتفاعلهم مع الاحداث السياسية وصراعهم ضد الظلم والطغيان وما لديهم من مستويات ثقافية تؤهلهم للتعبير عن مواطنتهم وحريتهم . لم يكن ذلك السبب الحقيقي – في نظر الظاهر هو القوقعة والقلق في الشخصية العراقية . ان هذا الاستخلاص لا يمكن الاخذ به لأنه خال من الحقائق التاريخية وأسانيد الاحداث الواقعية ان هذا النهج الثنائي- الازدواجي الذي استند اليه الاستاذ الطاهر في تحليل بعض سمات الشخصية العراقية استخدمه كتقية في دراسة الوردي للشخصية العراقية حيث قال جعل الوردي مفهوم الازدواجية (بين البداوة والحضارة) مثالا وميتافيزيقيا قادرا على تفسير كل ما في المجتمع من ظواهر وقوى فرفع صفة الازدواجية الى مستوى القانون واسبغ عليها القدرة لإنتاج الشخصية والمجتمع والحضارة فجعل الازدواجية الخالقة لمعجزات ثم اعتبرها قدرا محتوما على العراقيين ولا يمكن الافلات من هذا المقدس بهدها جعل الازدواجية ظاهرة شاملة وعامة تصلح الدراسة الشخصية

العراقية في كل زمان وكل مكان . بينما هي ظاهرة مؤقتة وجزئية وقد تصلح منهجا لدراسة ظاهرة معينة مرحلة تاريخية معينة مثل العصور الوسطى « نجد الازدواجية اليوم منهجا جامدا وعقيما غير صالح لاستيعاب أعماق الواقع الاجتماعي ومعرفة ما تتفاعل في مستوياته المختلفة من قوى وتيارات وما تفجر في بنائه عن ثورات وانتفاضات وتناقضات وصراعات الى درجة تعقد خصائصها وسماتها ويجند التفكير ويعطل التخليل ولا يستثير اهتمام المواطن لقد جعل الزميل الوردي من الازدواجية وصفة طبية جاهزة مثلمان كمثل ـ الاسبرو - الذي يعطي للمصاب (بمرض السرطان) انه يهدئ لفترة قصيرة فقط وتعود الالام المبرحة المؤلمة بل جعل الازدواجية غطاء ممزقا ومهلهلا لا يستطيع أن يحجب الواقع الاجتماعي المليء بالتناقضات والصراعات » . لقد أوضح الدكتور الطاهر بعض الخصائص التي تتميز بها الشخصية العراقية وهي :

١ -انها شخصية حية لأنها حصيلة صراع مستمر لكل تلك القواقع المتعارضة المتناقضة التي لم تستطع توحيدها وصهرها وتأليف كل منسجم منها فتعايشت في وجدانها قيم مختلفة ، تتهادن حينا وتنازع أحيانا كثيرة ، فهي ليست مصابة بانشطار الوجدان كما يتصور البعض وانما تقوم بأدوار متعددة ومتناقضة :

٢ -تمجيد الذات وتعظيمها بالرجوع الى التاريخ فالحاضر الذي يعيشه مصدر آلامه وشقائه والماضي ينبوع لأمجاده ومفاخره وقعت الشخصية . العراقية بين هاتين العقدتين ، تمجد ذاتها وتتهمها بالخيبة والفشل تجد في أمجاد الماضي عزاء وتسلية ، بل تنكمش الى الماضي هربا من حاضر مؤلم لا تشكل هذه الخاصية عقدة تكمن في شخصية العراقي بل هي ثقافي . ارثي يتماثل معه كاطار قومي قوي عندما يواجه تيارا يهدده وفي الوقت ذاته لا يمكن ان نسمي هذا انكماشا بل تماثلا تاريخيا يتواصل بين الحاضر والماضي ويتماثل بين الذات الفردية والضمير الاجتماعي للامة وهذه هي الاصالة

٣ -يعتز العراقي بكرامته وبشخصيته ويبالغ ابعادها وترجع هذه الصفات أحيانا بتوسيع الى اصول تاريخية كالأسرة والعشيرة والمحلة والقرية والمدينة .

تعكس هذه الخاصية أحد أوجه الاعتبار والهيئة الاجتماعية للفرد حيث يقاس (العراقي) من خلال احتفاظه بكرامته ودرجة اعتزازه بها .

٤ -الاندفاعات المفاجئة : تندفع الشخصية العراق اندفاعا مفاجئا وتنفجر انفجارا غير متوقع حتى قيل ان العراقيين في سلوكيتهم مثل (نار الخطفة) تهب مرة واحدة وتنطفئ مرة واحدة (الحلفة نبات بري سريع الاشتعال الهفوت).

هل يصح للانسان الذي يعتز بكرامته وعزها وبمجد ذاته ويتماثل مع تاريخ امته وارثها كاطار مرجعي ان يشبه بالحلفة (النبات البري الذي يحترق بسرعة ويهفت بسرعة) لان الاندفاع المفاجئ لا يمكن ان ينصل من دون أن يكون هناك اثارة عنيفة لدخيلة او مكونات الشخصية القومية للفرد العراقي . ان هذه الخاصية عديمة الاسناد المنطقي والحدث الواقعي .

٥ -عقد البطل الشعبي : يكمن في أعماق الشخصية العراقية حب حقيقي وتقدير منقطع النظير للبطل الشعبي الذي تؤلف سيرته نواة صلبة في فضائل التراث الاجتماعي . ترمز حياته الى طموح الجماهير المضطهدة خواها نسجت الاساطير الشعبية صفحات رائعة وتضمن الشخصية العراقية كراهية الظالم والدجال وعلى الرغم من مرور القرون العديدة لإنزال الذاكرة الجماعية تبجد الابطال الشعبيين النماذج الاجتماعية في والفضيلة .

٦ -الاستمرار في محاولة الحفاظ على الحدود النفسية والاجتماعية التي تفصل القواقع بعضها عن بعض باللجوء الى مصطلحات تشرية وسطحية المجالات التي تحول دون نشوب نزاع مباشر بين شخص وآخر ينتميان الى قوقعتين متنازعتين والتي ترمز إلى

الصداقة في المظهر ، ولكنها تحافظ على المسافات والإبعاد النفسية وتتجنب طرح الموضوعات الملتهبة ومناقشتها .

٧ -العنف : تتميز السلوكية القوقعية القلقة بالعنف في معالمة الخصوم ولعل السبب في ذلك تراكم المظالم وتجمع الحرمان والانتظار مدة طويلة وخوفا من فوات الفرصة وشل حركة الخصوم ترجع جذور هذه الظاهرة الى الماضي السحيق : السومرين والأكديين والأشوريين والبابليين والامويين والعباسيين . ويؤمن الطاهر بان التخلص والتحرر من الولاء القوقعي والواقع الاجتماعي القلق المشم يكون بتطبيق النظرية الاجتماعية الاشتراكية التي تسمو على كل التحيزات القبلية والمحلية والاقليمية والطائفية والعنصرية وغيرها ..

اخيرا وصف الطاهر المجتمع العراقي بالعبارات الاتية « حدثت الربع الثالث من هذا القرن تحولات جذرية غيرت وجه المجتمع العراقي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وايديولوجيا بكلمة واحدة - حضاريا – فانتقل

العراق من كونه تابعا مربوطا بعجلة الاحلاف العسكرية الاستعمارية الى التحرر الوطني ومن النظام الملكي ـ الإقطاعي الى الجمهوري والإصلاح الزراعي والثورة . الاشتراكية في الريف ، ومن الدعوة الى التعصب للولاءات الضيقة القوقعية المتحجرة إلى الدعوة إلى الانفتاح ووجهة النظر الشاملة ومن التخلف الى التقدمية والانطلاق في مسار المجتمعات المتطورة وبالرغم من كل ما قطعه المجتمع من اشواط في مضمار التقدم الا أن المعضلة التي ينتظر الحل العاجل وتتطلب تضافر الجهود ـ هي باختصار - استمرار الولاءات القوقعية المتكلسة المتحجرة التي بقيت عالقة في وجدانيات الافراد في أعماق الشخصية العراقية وتسيطر على سلوكيتها ونشاطها وتطلعاتها وتمارس انواع الضغوط الشعورية واللاشعورية عليها . كان لهذا الواقع الموضوعي الاثر الكبير في تأرجح الخط العام لمسيرة المجتمع العراقي وصعوبة اختيار الدرب الذي يقوده الى الاشتراكية .

الغريب في النص الاخير الذي طرحه الدكتور الطاهر بانه يعتقد بان الشخصية العراقية بقيت مستمرة في تعصبها للولاءات الضيقة القوقعية المتجبرة فتكلست ووصلت الى درجة المعضلة وهذا يعني ان هذه الخاصية واجدة عند المجتمع البدوي والريفي والديني دون تأثرها بالتطوراتالتاريخية والحضارية وهذا لا يمكن تصديقه لان تطور المجتمع يتأثر بتطور الفرد ، وتطور الفرد يتأثر بتطور المجتمع ، فكيف يتطور المجتمع العراقي بأنواعه الثلاثة وتبقى السمات القومية للشخصية العراقية ثابتة لا تغير ولا تتفاعل مع تطورات مجتمعها.

وزبدة القول ، أن محاولة الدكتور الطاهر في دراسته المجتمع العراقي مثرية من الجانب

البحثي لأنها جمعت معلومات من انماط الحياة الاجتماعية السائدة في المناطق الصحراوية والريفية والمدينية وشملت ايضا آراء ونماذج عن الشخصية العراقية في النصف الاول من هذا القرن وكانت في وقتها تمثل بدايات سوسيولوجية محلية (عراقية) اي دراسة بعض أوجه الحياة الاجتماعية العراقية من قبل باحثين عراقيين اجتماعيين اتسمت بالوصف والنقد هذا ولابد لي بعد هذا الاستطراد عن المجتمع التراقي وشخصية فرده آن اتبت اسهامات الاستاذ الطاهر في نقل المعرفة السيسيولوجيا العالمية الى المواطن العراقي المختص والمهتم بالفكر والبحوث الاجتماعي الغربية وهي كما يأتي :